بابا الدكتور سهيل إدريس

صباح الخير يا بابا الدكتور،

حين تركتُ المستشفى في العاشرة والنصف من ليل ١٨ / ٢ / ٢٠٠٨، بناءً على إلحاح الماما عايدة، كنتُ أخشى أنّ ما يَفْصل بينكَ وبين الرحيل الأبديّ ساعات. لذا، عدتُ إلى المنزل، ووضعتُ هاتفي المحمولَ بين أذني اليمنى والمخدّة. بعيْدَ منتصف الليل، دقّ الهاتفُ، فأدركتُ أنّ موعدي معكَ قد حان. قالت رنا إنّ عايدة اتّصلتْ وأبلغتْها أنّكَ لن تستطيع الاستمرار. ارتديتُ ملابسي بسرعة، وأَعلمتُ كيرستن بالأمر. ثم مررتُ على رنا، وطِرْنا إلى المستشفى.

كنتَ فاغرَ الفم، ونسائمُ السَّكينة تحوِّم فوق جبهتك. عايدة محمرّةُ العينين، وتقول إنَّها سمعتْكَ تَشْهق شهقاتٍ صغيرةً قبل أن تَرحل. تسألني، كطفلٍ أضاعَ لعبتَه، أين ذهبتْ روحُكَ؟ تقول إنَّها لم تَرَها. وكيف سترينْها يا ماما، فكَّرتُ؟ أهي الشهقاتُ، سألتْني؟ أيكون ما يَفْصل بين الحياةِ والموتِ... شهقة؟

ملأْنا أوراقَ المستشفى، وأخذناكَ، أنا ورنا إلى البرّاد. هناك، في الغرفة، أمام البرّادات الثمانية، قبّلتُكَ. ها إنّ تاريخًا من الأُبوّة والتأسيسِ والإبداعِ والنضالِ والقتالِ والحُبِّ والشَّبَقِ والشَّغفِ يَدْخل إلى الثلاّجة.

أوصلتُ الماما ورنا إلى بيتيْهما. لم نخبرْ رائدة لأنَّها كانت تعاني آلامَ الظهرِ والرقبة، وكانت نائمة. عدتُ إلى المنزل وقضيتُ ساعات الفجر مع كيرستن، نتحدَّث عنك.

في الصباح قرَّرْنا، أنا ورنا، أن لا ندفنَكَ إلاّ في اليوم التالي: فقد كان يَصْعب أن ننهيَ ترتيباتِ الوداع خلال ساعات؛ ورنا نَسيتْ أو أَهملتْ أو أنَّها لم تصدِّقْ أنَّك ستَرْحل ذاتَ يوم، لذا لم تشترِ القبرَ قبل شهور كما كنّا اتفقنا. ذهبنا إلى «إدارة المدافن» في مقبرة الشهداء. الناس، أَقصد الأحياءَ، بعضُهم فوق بعض. جَلَسْنا في مكتب الإدارة. المسؤول شخصٌ طريف: عملُه هنا «بنصف دوام»؛ أما في الدوام الثاني فيعمل محاسبًا في نادٍ ليليّ. قال لنا إنّ «جمعية المقاصد» ستتولّى كلَّ شيء، من الألفِ إلى الياء، وشَرَح لنا دَرَجات الجنّاز.

نعم يا دكتور. جنّازُ الموت طبقات، ولِمَ يكون أفضلَ من مهرجانات الحياة؟! قال المسؤولُ إنّ أمامنا ثلاثةَ خيارات: مليون ومئة ألف ليرة، ومليون وستمئة ألف ليرة، وثلاثة ملايين وثلاثمئة ألف ليرة. الموتُ الأوّل عبارةٌ عن سيّارةٍ «جيّدة» وحمّاليْن. الموتُ الثاني عبارةٌ عن سيارةٍ أفضل، وكَفَنٍ أفضل. الموتُ الثالث موتٌ دولوكسٌ: سيّارةُ ليموزين، وسيّارةُ إسعافٍ وراءها (لِتُسعفَ مَنْ؟)، وثلاثةُ حمّالين، وكَفَنٌ مصريٌّ خَلَنْج، وخَيْمةٌ خضراءُ تظلِّل القبرَ وقتَ الدفن. كان الطقسُ عاصفًا يا بابا. قلتُ للمسؤول إنَّنا نَكْره الليموزين، وإنَّكَ طوالَ عمرك تَكْره التشاوفَ والفَخْفَخَة. ولكنّ الخيمة... الخيمة ضرورية في هذا الطقس العاصف، وإلاّ ابتلَّ الواقفون حول القبر أو مَرِضوا، فَجَرَّسونا. ثم... ماذا سيقول الناسُ الكلابُ لو استَرْخَصْنا موتَكَ، سألتْ رنا؟ سيتّهموننا بالبُخْل والعقوق، وقد نُحْرِجُ الماما أمام «العائلات» البيروتية. فلْنتجنَّبِ البهدلةَ إذنْ، قالت رنا. واخترنا الموتَ الدولوكس.

آه، نسيتُ. الملايينُ الثلاثةُ والكسور هي غيرُ ثمنِ القبر طبعًا، الذي هو ٦٠٠٠ دولار (أَنزله المسؤولُ فيما بعد إلى ٥٥٠٠ «كرمالنا»). بعدها، بدا الحرجُ على المسؤول اللطيف حين خَيَّرَنا بين مقبرتيْن: الشهداء أو الباشورة. أما المكان الأول، كما قال، فلا يُستَبْعد أن يكونَ في داخل قبوره الجديدة موتى قُدامى... خلافًا لمقبرة الباشورة التي استَحْدَثَتْ فيها «جمعيةُ المقاصد» رقعةً جديدةً للدفن. ولكنْ، هل تَضْمن يا حضرةَ المسؤول ألاّ يكونَ تحت هذه الرقعة الجديدة نفسِها موتى قُدامى، سألناه بين الجدّ والمزاح؟ ابتَسَمَ: «لا ضمانة. الأرض كلُّها أموات!». وتذكّرتُ يا بابا بيتَ المعرّي:

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَديمَ الـ أَرْضِ إلاّ مِنْ هذهِ الأجسادِ!

فليكنْ مقامُكَ، إذنْ، في مقبرة الشهداء يا دكتور، حيث أفرادُ العائلة الآخرون، كما قالت رنا.

حسنًا، ابتسم المسؤول. ثم سأل عمّن يَمْلك الحقَّ الحصريَّ في فتحِ قبرِك. تطوَّعتُ للحقّ الحصريّ، من دون أن أَفْهمَ المغزى. شَرَحَ لنا أنّ ذلك يعني أنّ بمقدور عددٍ محدودٍ من الأشخاص أن يُدفَنَ بعدكَ في المكان نفسه: أنا وعائلتي الصغيرة (زوجتي وابنتاي)، والماما، ورنا، ورائدة؛ ويُضاف إليهم مَنْ أوافقُ أنا وحدي على إدخاله. وهذا يعني أنّكَ لن تكونَ إلاّ بمعيّتنا، أو بمنْ أوافقُ أنا شخصيًّا على أن يكونَ معكَ. ممتاز، قلتُ، وأنا أشعرُ بالتميُّزِ والعَظَمةِ... والسُّخف.

أصرّت رنا على إضافةِ مزهريّةٍ إلى الضريح. هذه «لوحْدها، لحالها،» قال المسؤولُ، وكلْفَتُها مستقلّةٌ: ٧٥ دولارًا. والورود؟ سألتُ. هي أيضًا مستقلّةٌ، «لحالها، لوحدها،» أجابني. فكّرتُ: مزهريّةٌ من دون ورود؟ سورياليةٌ قد لا تناسبُكَ، وأنت أقربُ إلى المذهب الواقعي. اتّكَلْنا على اللّه يا أستاذ: زهورٌ ومزهريّةٌ على ذوقِكَ. جميل، ردّ. حان وقتُ زيارةِ القبر، إذن. ونادى أحدَ الموظّفين ليريَنا منزلَكَ الجديد.

في المقبرة كنّا أيضًا أمام خياراتٍ ثلاثة (أراكَ تبتسم وتقول بخبث: الحياةُ نفسُها لم تَتركْ لي هذا العددَ من الخيارات!). المكانُ الأوّل بعيدٌ عن المدخل، ولكنّه في ظلّ شجرة. والثاني بعيدٌ عن المدخل، ولا يظلّله شيء. أما الثالث، وهزّ الموظّفُ رأسَه، فهو أحسنُ قبر: «هنا»! وأشار بيده إلى مكانٍ في وسط المقبرة كما يَفْعل السّاحرُ أمام المشاهدين بعد نجاح حيلتِه. صِحْتُ في داخلي وقد اجتاحني العبثُ: نعم، هنا أفضلُ قبرٍ في الدنيا... وما بعد بعد الدنيا!

عُدنا إلى مكتب المسؤول اللطيف، المحاسبِ في النادي الليليّ بعد انتهاء دوام الدفن (تذكّرتُ جان جينيه: **L'amour et la mort**). سنَكْتب النعيَ الآن، قال. أدارَ الكومبيوتر، ثم بَحَثَ عن «ملفّ» النعي، فارتسمتْ على الشاشة تلك

الورقةُ التي تمتلئ بها جدرانُ لبنان وهي تبدأ بالآية ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ . قال إنَّها «نعوة ستاندرد.» بكبسةِ زرّ، حَذَفَ المسؤولُ اسمَ ميّتٍ قبلَكَ، ووَضَعَ اسمَكَ مكانَه: سهيل شريف إدريس. سارعتُ إلى إضافة لقبك: «الدكتور»؛ فأنا لا أعرفُكَ إلاّ دكتوراً: وُلدتَ دكتوراً، وعِشْتَ دكتوراً، وتموتُ دكتوراً. ثم سأَلَنا عن أسماء أولادكَ، واسمِ زوجتك، واسميْ زوجيْ رنا ورائدة، وأسماءِ إخوتك الذكور، وشقيقاتكَ المرحوماتِ الثلاث، وأسماءِ أزواجهنّ، وعنوانِ العزاء. ثم سَحَبَ نسخةً من ورقة النعي من آلةٍ طابعةٍ أمامه، وأعطاني إيّاها.

ستَضْحك يا دكتور الآن (تِسْلَمْ لي ها الضحكة!). فحين قرأتُها، عُدتُ رئيسًا للتحرير. تناولتُ قلمًا من طاولة المسؤول، ورحتُ أصحّح: «نَنْعَى» لا «نَنْعِي» يا أستاذ، قلت. فالفعل هو نَعَى ← يَنْعَى. ثم إنّ شقيقَيْ أبي، وجيه ومنير إدريس، مرحومان، لا «مرحومون»... ولا «مرحومِين» بالتأكيد. وأخيراً، لا تَضَعْ يا عزيزي فراغًا بعد الواو.

سُرَّ المسؤولُ سروراً شديداً يا بابا. طلبتُ إليه فوراً، وأنا أبتسم، أن يَخْفضَ الكلفةَ ألفَ دولارٍ لقاءَ الخبرة التي قدّمتُها إليه. ضَحِكَ، وحَلَفَ لي بأنَّهم في «المقاصد» لا يَرْبحون شيئًا. ثم شكرني وقال إنَّه «سيعتمد» نسختي المصحَّحة لكلّ أموات المسلمين القادمين. سأَلَنا عن الجرائد التي نودُّ أن نُرسلَ ورقةَ النعي إليها. قلنا السفير والنهار والأخبار. ردّ أنّ أحداً لا يقرأ الأخبار، واقترح المستقبل. قلتُ إنّ جمهورَكَ يا دكتور أكثرُه في السفير والأخبار. استَغْرَبَ قليلاً: فالجمهورُ بالنسبة إليه، كما يبدو، هم الطائفة؛ ولـمّا كنتَ يا دكتور من السُّنّة، فذلك يعني (كما أظنّ أنّه اعتقد) أنّ جمهورَكَ ــ في الأساس ــ هُمْ في جريدة المستقبل.

❖ ❖ ❖

صار كلُّ شيء جاهزاً، إذنْ. عادت رنا إلى بيتكَ لتكون إلى جانب الماما. وتوجّهتُ إلى المكتب لأحضّر سيرتَكَ المهنيّةَ (CV) وأُرسلَها إلى الصحف؛ فقد خشيتُ أن يتكاسلَ الزملاءُ الصحافيّون عن القيام بذلك، أو يخبِّصوا في المعلومات. لكنّني فوجئتُ بأنّ معظمَهم كان مهيَّأً للأمر قبل شهور: فكثيرٌ من المقالات المكتوبة بعيْد رحيلكَ ينحو منحًى أكاديميًّا؛ وهذا أَشْعرني بالسرور لأنَّك تَكْره العجلةَ و«التأبينيّةَ» السخيفة. أنهيتُ سيرتَكَ المهنيّة، فنَضَّدَتْها ميشلين، وفَكَّسَتْها جُمانة (نعم، حبيبي، أَدخلتُ فِعْلَ «فَكَّسَ» في قاموسنا الجديد، لا تَخَفْ). وجلستُ على كرسيِّكَ، وبدأتُ أكتب... لا لشيءٍ إلا لأنّني مشتاقٌ إليكَ.

بابا الدكتور سهيل إدريس

كتبتُ عن فجيعتي برحيلِ أهمِّ رجليْن في حياتي خلال شهرٍ واحدٍ: أنتَ، والحكيم جورج حبش. كنتُ أشعر باليُتْم الكامل: فها إنّ أكْمَلَ رجليْن عرفتُهما رَحَلا. وكنتُ أشعر بالذَّنْب يجتاحني: فأنا لم أكتبْ كلمةً واحدةً عن الحكيم، وكنتُ أنتظر أن يأتي موعدُ صدور هذا العدد لأكتبَ عنه صفحاتٍ طوالاً. ولكنْ جاء رحيلُكَ أنتَ يا بابا، ولم أعد أعرفُ ما أفعلُه: فدمجُكما معًا في مقالٍ واحدٍ ظُلْمٌ لكما معًا، وتجاهُلُ رحيلِ الحكيم مستحيل، ولاسيّما أنّكما كما يبدو وُلدتما في العام نفسه (١٩٢٥) ورَحَلتما في العام نفسه... وبفارق شهر (مَنْ دَبَّرَ هذه المؤامرة؟). والأسوأ أنّ كلَّ أفكاري عن الحكيم أخذتْ تتبدّد، وتكتسحُ صورتُكَ بسْمَتَه. لا أعرف ما يسمّون ذلك في علم النفس، لكنَّني شعرتُ في كلّ الأحوال بأنَّني قادرٌ على أن أُعبِّر عن وفائي للحكيم في وقتٍ آخر، كتابةً أو عملاً ميدانيًّا. وإلى أن يأتي ذلك «الوقتُ الآخر،» أرجو منكَ يا بابا أن تسلِّمَ عليه، وأن تُخْبِرَه بأنَّني سأبقى ابنَه البارَّ (لا تَغَرْ يا بابا)، وبأنَّني لن أكلَّ عن العمل في الآداب و«نادي الساحة» و«حملة المقاومة المدنية» لخدمة القضايا التي مات (ومُتَّ) من أجلها.

وضعتُ ما كتبتُه عن الحكيم وعنكَ جانبًا (أذْكر أنَّني ركّزتُ على أنّه علَّمني ضرورةَ الأخلاق في السياسة، وأنَّكَ علَّمتَني ضرورةَ السياسة في الثقافة). وذهبتُ إلى عايدة. بلا طُول سيرة كما يقولون، قرّرنا أن نذهبَ، أنا ورنا وجمال ابنُ خالتي سامية، إلى المستشفى صباحَ اليوم التالي لسَحْبِكَ، وغَسْلِكَ، ثم العودة بكَ إلى عايدة ورنا والمعزِّين، قبل أن نودِّعكَ.

هنا واجهتُ إحراجًا جديداً. فقد قال جمال إنَّه ينبغي على بعض أفراد عائلتنا أن يَشْهدوا مراسمَ غسلكَ، وأضاف أنَّه سيَفْعل ذلك إنْ لم أكن راغبًا. كنتُ أشعرُ بأنَّني سأنهارُ لو رأيتُكَ ساكنًا وعاريًا وباردًا، غير أنَّني لم أحتملْ أن أبدو جبانًا ومتردِّدًا و«خَسعًا.» حسمتُ أمري: «بالتأكيد سأذهب، ولَوْ! شو هالحكي!». بل وطلبتُ إلى رنا أن تبقى خارجًا، بحجّة ضعفِها ورقّتِها، مع أنَّني تذكّرتُ فورًا كيف أُصبتُ بشبه انهيارٍ جسديّ حين شهدتُ ولادةَ ابنتنا نايْ. أَتذْكر يا دكتور سهيل؟ وقتَها، تبجّحتُ بأنَّني قويٌّ كالثور، فدخلتُ غرفةَ الولادة؛ ولكنَّني حين رأيتُ كيرستن تَصْرخ ألَمًا، صَعدَ العرقُ الباردُ إلى جبهتي، وانغلقتْ أذناي، واصطكّت ركبتاي، وهرولتُ إلى الحمّام، حيث اندلقتْ منّي دفقاتٌ مقرِفةٌ من الإسهال الشديد، فيما رحتُ أَسْمعُ كيرستن تَصْرخ من بعيد وتَشْتمني وتَشْتم أبي وأبا أبي!

الحاصل أنَّني دخلتُ غرفةَ الغسيل مع جمال، وأدْخلكَ الحمّالون في تابوتٍ، ثم رفعوكَ منه. طلبتُ كرسيًّا كي لا «أُصَفْرِن،» وجلستُ. في الزواية، جَلَسَ شيخٌ يقرأ القرآن. صوتُه مبحوحٌ قليلاً، وقراءتُه غيرُ جميلة. ثم نَزَعَ رجلانِ عنكَ بيجامَتَكَ وسألاني إنْ كنتُ أودُّ الاحتفاظَ بها. قلتُ لهما لا. وفكّرتُ: ما تركْتَه لي سيكفيني حتى أموت.

أخيرًا رأيتُكَ. رأيتُ وجهَكَ، فوقفتُ. وضعتُ يدي على فمي. بدأ شيءٌ جديدٌ يخترقني كالسَّهم، في مكانٍ ما بين المعدة والصّدر، وخشيتُ أن يتكرَّر ما حصل معي أثناء ولادةِ نايْ. فجلستُ من جديد، ورحتُ أراقبُ الرجليْن يَنْزعان باقي ثيابِكَ بعد أن غَطّيا جذعَكَ بمنشفةٍ بيضاء.

كنتَ نحيلاً يا بابا. كان نحيلاً يا ماما. حبيبُك كان نحيلاً، أنْحَلَ ربّما ممّا عرفته يومَ التقيْته قبل ٥٣ عامًا في مكتبه في العازارية لتبدأا معًا مشوارَ الحبّ والألم والأدب. وكنتَ أبيضَ هادئًا. اقتربتُ منك وقبّلتُ رأسَك البارد، وتلبَّثتُ أمامه قليلاً: ترى، أين ذهبَ ما في هذا الرأس من أفكارٍ وتجاربَ ونضالاتٍ وعواطفَ ونساء؟ وأين سيَذْهب ما فيه من مشاريع كُتُبٍ وقواميسَ واتّحادات؟

عُدتُ إلى الكرسيّ، لكنّني سرعانَ ما انتفضتُ حين رأيتُ أحدَ الرجلين (وكان عجوزًا) يحاول أن يَنْزِعَ من صدركَ الشريطةَ اللاصقةَ الصغيرةَ التي تغطّي الثقبَ الذي كان يجري من خلاله غسيلُ كلْيَتيْكَ. «البابا بيتوجَّعْ هونْ،» قلتُ، «اللّه يخلّيكْ يا معلّم. شويّ شويّ على هيْدا المحلّ. كان بيوجّعو كتير.» وكانت تلك المرةَ الأُولى التي بكيتُ فيها فعلاً: فحين نَزَعها ولم تُحرِّكْ ساكنًا يا حبيبي، تيقّنتُ من أنَّكَ لم تعد تحسُّ بأيّ شيء.

بدأ الغَسْل. أتى الرجلُ العجوزُ بليفةٍ من النوع الخشن، وبصابونة. ورشّ الرجلُ الآخرُ (وكان شابًّا) عليهما ماءً من نربيشٍ معدنيٍّ موصولٍ بحنفيّة. آه، لا، نسيتُ. قبلَ ذلك، كان العجوزُ قد أَخْرجَ من حقيبته كيسًا صغيرًا ونثَرَ محتوياته على اللّيفة. كان ما نثَرَه شيئًا أبيضَ يُشْبه النفتالينَ الذي تَنْثره عايدة بين الثياب التي تخزِّنها خشيةَ العُثّ؛ لكنّي لم أجرؤْ على سؤاله مخافةَ أن يكون ذلك هو النفتالينَ فعلاً. وبدأ العجوزُ يحفُّكَ ويفْركَ جسمَكَ ووجهَكَ ورأسَكَ بالليفةِ والرغوةِ الكثيفة، حريصًا في الوقت ذاته على ألاّ تقعَ المنشفةُ عن جذعك. ثم طلب من زميله الشابّ أن يرشَّكَ بالماء. وأعادَ الكرّةَ بليفة جديدة، فرَغا الصابونةَ فوقَها، ثم أضافَ ذلك الشيءَ الأبيضَ الذي يُشْبه النفتالين. تجرّأتُ هذه المرةَ وسألتُه عمّا يكون. إنَّه الكافور، أجاب، وأردف أنّ ذلك من «عاداتِ أهلِ السُّنّة والجماعة.»

نعم، يا دكتور! أنسيتَ أنَّكَ من أهل السُّنّة والجماعة؟ العجوز، كما أظنّ، لم يقرأ الخندق الغميق، الذي هو شبْهُ سيرةٍ ذاتية، أو سيرةٌ ذاتيةٌ روائية. لم يَعْلمْ أنّ سامي خلَعَ الزيَّ الدينيَّ بعد أن ناداه الأولادُ «شيخ صغير،» وبعد أن دَعَته امرأةٌ على الشرفة إلى انتظارها قليلاً لتناديَ أختَها فـ«تتفرّج» عليه، وبعد أن استولتْ عليه رغباتُ الجسد منذ اللحظة التي رأى فيها منْ على سطح المعهد الدينيّ نفسه تلك الفتاةَ الشقراءَ صاحبةَ ثوبِ النوم الأزرق، وبعد أن استحوذتْ على خياله نداءاتُ السينما («ذلك المكان المشبوه»). نداء «العينيْن الزرقاويْن، والشفتيْن الريّانتيْن، والنهديْن المُسْكرين،» لتلك الممثّلة وهي تقبّل ممثّلاً «قبلةً محمومةً عاصفة»: كان ذلك النداءُ يا دكتور سهيل (وضَعْ جانبًا الآن حكايةَ التمييز بين الروائيّ والشخصية الروائية) هو ما شَدَّكَ في الدُّنيا، وإليها. ولكنّكَ اليومَ، في لحظةِ رحيلكَ الأبديّ، تُكْملُ ما انقطَعَ من سيرةِ الشيخِ الصغير سامي: فتعودُ من أهلِ السُّنّة والجماعة! على كلّ حال، الكافورُ، كما قال لي المغسِّلُ العجوزُ، يُعطي الجسدَ رائحةً طيِّبةً، ويُزيلُ عنه رائحةَ العفونة. إذنْ، فكّرتُ بعد هنيْهة، كان سامي، «اللاّشَيْخُ،» الشَّبِقُ، عاشقُ الممثّلة، وعاشقُ سُميّا، سيحبّ الكافورَ هو أيضًا.

ثلاثَ مرّاتٍ غَسلَكَ الرَّجُلان، فصِرْتَ أنظفَ من النظافة يا حبيبي. لَفْلَفاكَ بثلاث ملاءات: بيضاءَ وزهريةٍ وخضراء. وبعدَها كَفَّناكَ بكفنٍ مصريّ بلون الخَرْدل، وسَمَحا لي ولجمال بتقبيلكَ القبلةَ الأخيرةَ على رأسك الباردِ الناصع، ووضعاكَ في التابوت، ثم في سيّارة الليموزين السوداء، تتبعُها سيّارةُ الإسعاف، فسيّارتُنا. وتوجَّهنا إلى بيتك.

على الطريق يا بابا، لاحظتُ أنّ سيارةَ الإسعاف تُطْلق زمّورَها المزعج. ذكّرني ذلك بمواكب الزّعماء الشَّبِّيحة الذين تَكْرهُهم وأَكْرهُهم. اتّصلتُ من هاتفي المحمول بسائقِ الإسعاف وطلبتُ إليه أن يوقفَ الزمّورَ فوراً: «الزلمة مات،» قلتُ، «فما الحاجةُ إلى الزّمور؟». شعرتُ بأنّ السائق استغربَ طلبي رغم رضوخه له؛ فكأنّني في نظره تخلَّيتُ عن شيءٍ دفعتُ ثمنَه غاليًا! ثمّ لاحظتُ أنّ توقُّفَ الزمّور ترافقَ مع خفوتِ صوتِ القرآن من الليموزين. كنتَ ستحبُّ ذلك يا أبي: فلطالما أَخبرْتَنا بأنّكَ لا تَفْهم سببَ «زعيق» الأئمّة في المساجد، ولا سببَ علوّ صوتِ القرآن. قوّةُ القرآن لا يُفترَضُ أن تأتيَ من الزعيق، ولا من حجمِ مكبِّرات الصوت؛ ذلك هو ما ردّدتَه أمامنا غيرَ مرة.

بلَغْنا البيتَ، فأَذِنَ لنا حَرَسُ الرئيس نبيه برّي بعبور الحاجز من دون تفتيش (أَعْلم أنّ ذلك لا يُثير في نفسك أيَّ فخرٍ استثنائيّ). وهناك نزلت الماما، ورائدة، ورنا، وكيرستن، ولين، وعمر، وغادة، وتالة، وجُمانة، وميشلين... من البيت لاستقبالكَ ووداعكَ في الوقت نفسه. وكان هناك الخال وليد، وسائقُنا حسين، والناطور أحمد (لم أره باكيًا من قبل)، وعددٌ كبيرٌ من أفراد العائلة والأصدقاء (منهم أحمد سعيد محمديّة وعبد طحّان، زميلا «فتّة الورق» أثناء الحرب). تحلَّقْنا جميعًا حول السيّارة التي تُقلُّكَ. حبيبتُكَ عايدة كانت ترجو منكَ أن تأخذَها معكَ. وكانت كيرستن تعانقها من الخلف وهي ترتجف. خلعتُ جاكيتتي الجلدية ووضعتُها على كتفيْ كيرستن، فلم يخفَّ ارتجافُها. قالت إنّه شيءٌ آخرُ غير البرد. كنتُ بردانًا، فاستَعَدْتُ الجاكيتةَ، وانطلقنا إلى مقبرة الشهداء، يُشيِّعنا الدمعُ والنِّداءُ والدُّعاءُ والسَّواد.

أَدْخلوكَ الجامعَ ليُصلُّوا عليكَ. بقيتُ في الباحة أَستقبل المعزّين. أَعْلم أنّكَ لم تكن ستَعْتبُ عليّ؛ فآخرُ مرةٍ صلَّيتُ فيها كانت قبل مئة سنة، وأخشى أن أتبهدلَ أمام المصلّين أو أتعثَّرَ بأحدٍ ينحني أو يَسْجدُ حين أكونُ واقفًا... أو العكس. تقاطَرَ المعزّون: مثقفون، سياسيون، نقابيون، لبنانيون، فلسطينيون،... ثمّ اقترح نقيبُ الصحافة محمد البعلبكي أن يأتوا بكَ إلى القاعة المواجِهة للمسجد، فسُجِّيتَ أمام الحضور، وألقى البعلبكي ونقيبُ المحرِّرين ملحم كَرَمْ كلمتيْن بليغتيْن. فيما بعد، قال لي د. هشام نشّابة إنّ تلك كانت المرةَ الأولى أو الثانيةَ التي يُسجَّى فيها الفقيدُ أمام الناس في تلك القاعة وتُلقى فيه الكلماتُ قبل أن يوارى الثَّرى.

حَمَلْناكَ إلى المقبرة. صراحةً، أنا لم أَحملْكَ خشيةَ أن أؤْذي ظهري من جديد (أَلم تحذِّرْني دومًا من الحمْلِ الثقيل؟)، بل اكتفيتُ بوضع يدي على تابوتكَ. تحلَّقْنا حول الحُفرة: إلى يساري الرفيق أبو ربيع، وورائي سائقُنا حسين، وفوق رأسكَ الشيخان الضّريران (أَمْ أنّ أحدَهما كان بصيرًا؟)، وفي مواجهتي جاك الأسود وعمر ــ حبيبُكَ وحفيدُكَ. كان عمر

يبكي كما لم يَفعلْ من قبل. استدرتُ مِنْ حولِكَ واتّجهتُ إليه واضعًا يدي اليسرى على كتفه اليسرى. لم أحسَّ بأيّ دمع. لعلّه الإرهاقُ، أو روتينُ المعاملات، أو الصّدمة.

غريبٌ، فكّرتُ، أين ذَهَبَ الدمعُ؟

أَنزلوكَ يا حبيبي، والشيخان يتلوان القرآن، والطقسُ جميل (يا ضيعان الخيمة!). ثم كَشَفوا عن وجهكَ. نظرتُ إليكَ، وخرجتْ من فمي ثلاثُ كلمات: «رَحْ جَرِّبْ كَفِّي.»

وانهمر دمعي عليكَ.

❖ ❖ ❖

نعم، سأحاول أن أواصلَ ما فعلتَه يا بابا الدكتور. ردّدتُ هذه العبارةَ لنفسي طوال الطريقِ الفاصلِ بين مثواكَ الأخير، ومثوايَ في هذه الدنيا المليئة بالوحوشِ الكاسرةِ والانتهازيين والنصّابين والمستغلّين وشُراةِ الذّمم والمرتشين وعبيدِ السلطة والكلابِ والحاقدين على تاريخ الآداب وحاضرِها ومستقبلِها. كنتُ أفكّر بقاموسنا الذي لم ينته، وبالمجلّة الفقيرة التي تتعرّضُ لدعوى قضائيةٍ سياسيةِ الجوهر، وبالدّار، وبالماما، وبألفِ أمرٍ آخر. أيّامُكَ يا أبي كانت أفضل: فحين أسّستَ الآداب كانت جزءًا من تيّارٍ ناصريّ قوميّ عربيّ صاعدٍ؛ أما اليوم فهي جزءٌ من «شِبْه تيّار» (وهذا في ذاته لفظٌ مُبالَغٌ فيه) يصارع تيّارًا أعتى وأغزرَ تمويلاً (وغسلاً للأموال!) وأكثرَ استحواذًا على وسائل الإعلام. إكمالُ الطريقِ يا أبي ليس أمرًا هيّنًا، بل لم يعد بديهيًّا: فاليومَ ينادي الجميعُ بـ«التجديد» و«التحطيم» و«التفكيك»... لا بـ«الإكمال.»

وأما نحن، أنتَ وأنا، فقد آمنّا دومًا، وبعمقٍ شديدٍ، بمفهومٍ محدَّدٍ للتجديد: إنّه التجديدُ مِنْ ضِمنِ مفاهيمَ عامّةٍ اشتَغَلَ عليها العشراتُ قَبْلَنا من المثقفين والمناضلين والنهضويين، ومن تيارات مختلفةٍ، ومناهجَ إبداعيةٍ متنوّعة. وأما التجديدُ المنبتُّ الصِّلة بما سَبَقَه، فهو قفزةٌ في المجهول؛ وقد تكون هذه القفزةُ رائعةً وشديدةَ الإيحاء على المستوى الإبداعي، ولكنّها مضيِّعةٌ ومُرْبِكةٌ ومشوِّشةٌ للذهن على المستويات الوطنية والقومية والإنسانية.

بلغْنا البيتَ وعانَقْنا المعزِّين والمعزِّيات. لاحظتُ فوراً أنَّ بيتَكَ انقَسَم قسمَيْن: الرجالُ هنا، والنساءُ هناك. لا يا جماعة، بيتُ سهيل إدريس لم يكن يومًا كذلك، ولن يكونَ ما دمنا أحياء. جلستُ مع النساء، وصار الرِّجالُ يجلسون من حولي، فأَحْبطْنا مخطَّطَ التقسيم. وعندما حان وقتُ الغداء، تذكَّرتُ كيف ثُرْتَ ذاتَ يومٍ (في عزاءِ إحدى أخواتكَ على ما أعتقد) حين نُودي على الرجال أَن انهَضُوا للأكلِ قبلَ النِّساء، فلم تَدْخلْ غرفةَ السفرة قبل أن تصطحبَ عددًا منهنّ، لاعنًا الممارساتِ الرجعيةَ التي «ليست من الإسلام في شيء.» وهذا ما فعلتُهُ في بيتِكَ يا دكتور. قلتُ إنَّ هذا البيتَ لا يُقَسَّم ولا يُطيَّف: إنّه بيتٌ كان، وسيبقى، واحدًا، وعَلمانيًّا، وتقدُّميًّا.

آه، نسيتُ أمراً. فوجئتُ بكيرستن حزينةً وشبهَ باكية ؛ فقد نسيتُ أن أضعَ اسمَها على ورقة النعي. لعنَ اللّهُ الشيطانَ والنسيان! لكنَّ كيرستن ترى دائمًا «وراءَ الأكمة ما وراءها» كما يقولون. قالت إنّ الأمرَ واحدٌ من اثنين: إمّا أنّ مجتمعَنا ذكوريّ، ولذلك لم يُبالِ المسؤولُ اللطيفُ في «إدارة المدافن» بسؤالي عنها لكي يضعَ اسمَها إلى جانب اسمي على الورقة (هكذا: «وَلَدُهُ سماح، زوجتُه كيرستن شايْد») ؛ وإمّا أنَّني «نسيتُه» لأنَّني أنا الرجعيُّ. وطبعًا، يا دكتور، نفيْتُ التهمةَ عن نفسي، وألصقتُها بالمسؤولِ اللطيف. ولكي أبرهنَ عن حُسن طويّتي، رحتُ أدورُ على أوراق النعي الملصقةِ أمام مصعدِ بنايتي، وأمام مصعدِ بنايتكَ، وعلى جدران المدخل، مضيفًا إلى جانب اسمي: «زوْجُ كيرستن شايْد.» وهكذا صرتُ، يا بابا الدكتور، أعرِّفُ شخصي بها، بدلاً من أن أعرِّفَها بي. ألا يَرْسُمُ هذا الحلُّ «اليدويُّ» السريعُ بسمةً صغيرةً على شفتيْكَ، أنتَ الذي لم تَرْغَبْ يومًا في أن تُغضِبَ امرأةً جميلةً؟!

أعودُ إلى أجواء التعزية. الزوّار متنوِّعون: صحافيون، شعراء، روائيون، مناضلون، فقراء، أغنياء، سياسيون، نقابيون،... الأمرُ الأطرفُ هو الاختلاطُ السياسي. ففي أكثر من مرّة، اجتمعَ في بيتكَ يا دكتور فريقا ١٤ آذار و٨ آذار، ومَنْ بينهما، ومَنْ يتعدّاهما، ومَنْ يحاول أن يتجرجرَ وراءهما. وهكذا جاء ممثّلون عن حزب اللّه، وتيّار المستقبل، والتيّار الوطني الحرّ، والحزب الشيوعي، وحركة الشعب، واللجان والروابط الشعبية، والجبهة الشعبية، والجبهة الديموقراطية (لا، «حماس» و«فتح» لم تأتيا لأنّهما منشغلتان بالتذابح)، ومنظّمة العمل، والمنتدى الاشتراكي، والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ونادي الساحة، ونادي اللقاء، وحملة المقاومة المدنية، والحركة الثقافية بأنطلياس، والنادي الثقافي العربي، وجمعيّة المقاصد، ونوّاب ووزراء سابقون من كلّ الاتجاهات. وحَضَرَ أشخاصٌ يكرهونَكَ ويكرهونني بشدّة، وسَبَقَ أن ركّبوا لكَ (وأحيانًا لي) خوازيقَ بالجمْلة والمفرَّق. وحَضَرَ أشخاصٌ يكرهونني ويحبّونك. عايدة تقول إنّ الموتَ يَجْمع ولا يفرِّق؛ ولذلك كنتُ شاكرًا حضورَهم جميعًا، وإنْ لم أستطعْ أن «أبلعَ» نفاقَ اثنيْن من المعزِّين لم تَجْنِ منهما طوالَ حياتك إلاّ الخَرْدقةَ والبَعْبَصة. ولكنَّني إخال أنّ جيلَكَ كان أكثرَ ليبراليةً (بالمعنى الإيجابي للكلمة) منْ جيلي، أو أنَّ بيروتَ الستينيات كانت أرحبَ من بيروتي أنا، أو أنَّني شخصيًّا أكثرُ عصبيةً وتشدُّدًا وزناخةً منكَ، أو جميع ما سبق ذكْرُه. الماما عايدة تخالفني الرأيَ: تقول إنَّك مكروهٌ منْ كثيرين، وإنَّكَ لستَ أقلَّ تشنُّجًا وعنادًا وتحدِّيًا منّي. وقالت إنَّك، في الموقف والكرامة والسياسة، «أَضْرَبُ» منّي بأشواط. عايدة، بالمناسبة، تتحدَّث عنكَ بصيغة الحاضر، وكأنَّكَ ما زلتَ ممدَّدًا في غرفة نومكما الداخلية.

أمرٌ طريفٌ آخر: المقْرئ خالد يموت. إنشادُه رائعٌ يا بابا الدكتور، وصوتُه رخيمٌ، وهو كثيراً ما يُنهي تلاوةَ القرآن بأدعيةٍ تفطِّر القلوبَ وتُلْهبُ العيونَ بالدمع. أجملُ ما فيه أنّ تلاوتَه تتجاوز الإنشادَ التقليدي، لتغدوَ أقربَ إلى التطريب الحقيقي. أعترفُ بأنّني كدْتُ أقتربُ من الإيمان بسبب عذوبة صوته وتموُّجاته. وذاتَ لحظةٍ سألتُه إنْ كان يغنّي. ردَّ بالإيجاب. حقًّا، وماذا تغنّي يا شيخ خالد؟ سألتُه. عبد الوهّاب وأمّ كلثوم، قال. سألتُه إنْ كان يحتفظ بتسجيلٍ لغنائه، فقال إنّه لا يغنّي إلاّ

في إطار عائلته الضيّق (عائلة يموت) كي لا يُغضِبَ المشايخَ الآخرين. حَزِنتُ يا بابا كثيراً؛ فقد كنتُ أريد أن أُسمِعَكَ الآن أغنيةً لعبد الوهّاب (الذي تَعْشق) بصوتِ خالد يموت. ما رأيكُ بـ«جَفْنُهُ، تَرَمْ تَرَمْ تَرَمْ، عَلَّمَ الغَزَلْ»؟ تبًّا للتقاليد!

الأكلُ كثيرٌ، أكثرُ من اللزوم، وكلُّه ممّا لذَّ وطاب: صيّادية بالسَّمك، كبّة أرنبيّة، كبّة لبنيّة، شيش بَرَكْ، صيني، فريكة... وأما الحلويات فهي ممّا كان سيَقْضي عليكَ حتمًا يا حبيبي لشدّة شغفكَ به، أنتَ المصاب بالسكّري منذ عقود: عَيْش السرايا، وعثمليّة، وبقلاوة، وكرابيج حلب مع ناطف... ولُوْلُوَة! والفواكه؟ المانجا، والبطّيخ الأحمر، والفريز، والكيوي. أتراني أجدِّف على الدِّين إنْ قلتُ إنَّ طعامَ أهل الجنّة قد لا يكون ألذَّ وأطيبَ؟ وما أدراني أين تكون الآن يا أبي أصلاً (أين يُحْشَرُ الأديبُ الملتزم بالعدل والتحرير وتجديد اللغة، بالمناسبة)؟ ولكنَّني أَعْلَم أنَّكَ انغمستَ في الملذّات حتى الثُّمالة، ولم تأبَهْ للسُّكّري كثيراً.

لقد عِشْتَ حياتَكَ يا أبي كأنَّكَ لن تموتَ أبدًا!

نخبَكَ، ونخبَ الملذّات التي لا تنتهي، يا أعزَّ صديق.

❖ ❖ ❖

تسألني عن ردود الصحافة؟

الصحافةُ احتفَتْ بكَ احتفاءً كبيراً. لم تبقَ جريدةٌ لم تَكتبْ عنكَ، وبعضُها (السفير، الأخبار، القدس العربي، النهار...) كَرَّس صفحةً أو أكثرَ لذكراكَ وأعمالكَ. جَمعتُ بعضَ ما كُتبَ عنكَ بعدَ رحيلك، ونَشرتُه في هذا العدد؛ فأنا أَعْلَم أنَّ شيئًا لن يُفرِحَكَ أكثرَ من أن ترى الآدابَ الآن. البريدُ السريع لم يَبْلغِ الجنّةَ أو النّارَ بعدُ؛ ولكنْ إذا استمرّ التطوُّر التقنيُّ على هذا النحو، فسيَبْلغكَ هذا العددُ ذاتَ يومٍ قد لا يكونُ بالبعيد.

لا، لم أَضَعْ لكَ في هذا العدد كلَّ ما كُتب عنكَ؛ فهذا سيستغرق عددَيْن كاملَيْن. أردتُ، مؤقّتًا، أن أعوِّضَ عن غيابِ ملفٍّ خاصٍّ بكَ في الآداب بما نَشرَتْه الصُحف. أَعْلَم أنَّك تتفهّم مشاكلي: فليس في وسْعنا الطلبُ إلى العشرات أن يَكتبوا فوراً كما تَفْعل الجرائدُ اليوميةُ. عبد الحقّ وياسين وأحمد وسامي في طريقهم إلى إعدادِ ملفٍّ خاصٍّ لـ الآداب آمَلُ أن يكونَ لائقًا، وألاّ يكونَ تمجيديًّا ولا تأبينيًّا ولا تقليديًّا. وإلى أن ينتهي إعدادُ الملفّ الموعود، أَنْشر هنا بعضَ المنشور، وبعضَ الشهادات والرسائل والفاكسات، وقصائدَ جديدةً كُتبتْ لك.

هل استبعدتُ أيّةَ مادةٍ منشورةٍ في الصحف؟

لم يتمّ ذلك عن سوءِ نيّةٍ في أيِّ حالٍ يا دكتور، بل تجنُّبًا للتكرار. ولكنّي أُقرّ بأنّي استبعدتُ عمداً مادّتين لابتعادهما عن الموضوعية بعداً مخيفًا، ولأنَّ هدفَهما الثأرُ المتأخِّر. المادةُ الأولى عنوانُها «سهيل إدريس يَرْحل تاركًا الآدابَ في مهبّ

الظنون.» فالمقال (الذي جاء بلا توقيع) يرى أنّ مجلّتَكَ «ظلّت محافِظةً، وبعنادٍ عجيبٍ، على كلِّ تقاليدها الشكلية القديمة، في ظلِّ ثورةٍ طباعيةٍ واتّصالاتيةٍ تبنّتها معظمُ المجلاّت المنافسة لها.» وعلاوةً على شكلها الذي لم يعجبْ محرِّرَ تلك الجريدة الخليجية (وقد يُعْجبه، ربّما، شكلُ المجلاّت التي تبدو شبيهةً بالأثرياء الجُدد الذين اكتشفوا المالَ فجأةً فراحوا يَلْبسون المجوهرات المُزَوْزَقَةَ ومعاطفَ الفراءِ بعضَها فوق بعض، بلا ذوق... وبتعالٍ)، فإنّه يرى أنّ دورَ الآداب الثقافي «لم يستطعْ مواكبةَ العصر.» طبعًا، المقال لا يُخْبرنا كيف تكون «مواكبةُ العصر.» غير أنّني أحسبُ أنّ المقصودَ هو الانخراطُ في العولمة الرأسمالية، ونبذُ «اللغة الخشبية،» و«تفهُّمُ» الوجود الأميركي في الخليج (هل تَعْلم أنّ الأميركان اليوم باتوا على شفير شواطئنا اللبنانية؟)... وكلُّها أطروحاتٌ سَئِمْتَ منها ولا حاجةَ بكَ إليها في عالمكَ الآخر.

أما المادّة الثانية فكانت ستسمِّم بدَنَكَ لأنّها مليئةٌ بالتجنّي. فكاتبُها، الذي يَعْمل في قناة «الحرّة» المموَّلة من الإدارة الأميركية، يرى أنّني قتلتُكَ أكثرَ من مرّة قبلَ أن تموتَ الآن. إحدى المرّات كما يقول هي عندما «تحوّلت الآدابُ عن عروبتها الثقافية... إلى [الدفاع] عن نظامَيْن، الأول أوتوقراطي والثاني ديكتاتوري.» أما «الأوتوقراطي» فلم يَذْكرْه، وأحسبُ أنّه يَقْصد نظامَ صدّام حسين، مع أنّه لم يقدِّمْ ولو كلمةً واحدةً تشير إلى أنّني أيّدتُ ذلك النظامَ أوْ برّرتُ أفعالَه مرّةً في حياتي، ومِنْ ضِمْنها تحالُفُه مع الولايات المتحدة (التي تموِّل القناةَ التي تَدْفع لهذا الكاتب أجرَه!) أثناء الحرب على إيران. وأما النظام «الديكتاتوري» الذي يَزْعم أنّني دافعتُ عنه، فهو النظامُ السوري «في مواجهة ثورةِ الأرز الساعيةِ إلى استقلالِ لبنان بعد عقودٍ من الوصاية بل الاحتلال»! فليتَكَ تُخْبره يا بابا بأنّ الآداب ما تزال تُمنع بين الفينة والأخرى من دخولِ سورية (العدد ٥ ـ ٦، ٢٠٠٧ مثلاً)؛ وليتَكَ تذكِّره بأنّ أقطابًا من «ثورة أرزه» كانوا... خدَمًا عند النظام السوري.

❖ ❖ ❖

أَعْرف أنّكَ لا تملُّ من سماعي يا بابا الدكتور. ولكنْ حان وقتُ قيلولتكَ. إنّها الثانية بعد الظهر. نَم الآنَ أيُّها الحبيب، لكي تكون يقظًا للاجتماع القادم. أحْسبُ أنّكَ، منذ وصولكَ إلى حيثُ أنتَ الآن، انضممتَ إلى تجمُّعٍ جديدٍ للكتّاب والمثقفين والقادة القوميين. نعم، الحكيم جورج معكَ لتحديد البوصلة القومية والوطنية، ورئيف خوري وغسّان كنفاني وسعد اللّه ونّوس وعبد الرحمن منيف وإدوارد سعيد وجوزيف سماحة ورجاء النقّاش لقيادة العمل الثقافي في وجه التخاذل والميوعة. ويومًا بعد يوم، ينضمّ إليكم كبارٌ آخرون: كبارٌ نَطْمَحُ، نحن الباقينَ على هذه الأرضِ الخلاّبةِ المجنونة، إلى إكمالِ عملِهِمْ... بالصِّدْق نفسه، والحُبِّ نفسه.

بيروت